سحاب الكلام

د. فهد العرابي الحارثي

مسألة مزاج

احس بان للموسيقى لغتين: لغة مباشرة مفهومة، ولغة اخرى غير مباشرة، وهي عسيرة الفهم، صعبة الهضم!

والموسيقى السهلة ليست بالضرورة الافضل او الاجمل او الاكثر علوقاً بالذهن، كما ان الموسيقى الصعبة، بالمقابل، ليست الاقل جذباً او اغراءً او اخصاباً للوجدان!

الموسيقى لغة، او لغات، ليس لها قواميس او معاجم، وليس لها قواعد من نحو او صرف، وليس لها مقاييس في فصيح او عامي، وهي لاتعترف، في أكثر الأحيان، بحدود صارمة بين الدخيل والأصيل!

الموسيقى احياناً هي جملة واحدة نافرة وسط مسطح كامل من الجمل.

والموسيقى احياناً هي فاصلة واحدة، لكنها عملاقة، بين ركام هائل من العبارات والمقطوعات.

ليس صعباً احياناً ان تفهم لماذا انت مشدود الى قطعة موسيقية، او جملة، او عبارة، فهي تهزك لأنها تطربك، وهي تطربك لأنها تحرك بعض انفعالك، وهي تحرك بعض انفعالك لانها تسدّ ثغرة مفتوحة في وجدانك!

احياناً قد يصعب عليك تماماً ان تفهم لماذا انت مشدود الى قطعة موسيقية، او جملة، او عبارة. ان كل الذي تفهمه او تحسه هو قدرتها العجيبة على ان تخترقك بلا هوادة، وان تصرعك بلا هوادة، وان تخرجك من كآباتك بلا هوادة.

لستُ بالضرورة من المناصرين أو المؤيدين للغموض في الفن، لكنني في الوقت ذاته لست ضده، ولست بالتالي من المناهضين له او المضطغنين عليه!

فانا احسب ان الغموض احياناً هو سرّ عظمة بعض الفنون كالرسم (او التشكيل عموماً) وكذلك الموسيقى. فالعمل الفني، موسيقى كان او تشكيلا، يبقى هكذا سؤالاً ضخماً يملأ العقل والوجدان، وتتناسل عنه مجموعات من الاسئلة التي لانهاية لها.

والغموض نوعان: غموض فنيّ، وغموض غربة. فاما الغموض الفني، فهو هذا الذي تتجدد نشوته فينا، ويتجدد استفزازه لأحاسيسنا ومشاعرنا، ويخلق في داخلنا في كل مرة نستمع اليه فيها، قوة لم نكن نحسها من قبل، وإقبالاً على الحياة لم نكن نعرفه من قبل. أما فيما هو متعلق بغموض الغربة فهو يخصّ ذلك الفن الذي لانفهم شيئاً من مفرداته، ولاندرك شيئاً من أخيلته او آلياته، فهو من مزاج آخر غير مزاجنا.

ومن العجيب ان غموض الغربة هذا لايخلو احياناً من قدرة كامنة تجعله يستطيع ان يلتقط خيطاً سحرياً، غير محدد، يربط

جميع الناس بـه، او اكثرهم على الأقل. وهم لايعرفـون بالضبط مـاهو ذلـك الخيط، لكنهم يحسونـه، ويـدركـون أبعاد سلطتـه عليهم. لعلـه سرّ الغمـوض نفسه، او لعلـه احد اسـرار الغربـة نفسها! فبعض وجوه الغربة قد يكـون مثيراً في ذاته، وقد يكون دافعاً الى الاحسـاس بمعانٍ ليست في متناول القـواميس السهلة او المعاجم الميسرة!

عندمـا يصل العمل الفني الى تجاوز المـزاج الخاص مكـوناً، بقدراته الذاتيـة الكامنة، مزاجاً عاماً مشتركـاً فهذا يعني اننا أمام عمل خلاق. والفن لايعرف عملاً مهماً وعملاً غير مهم، انه يعرف، بالاحرى، عملاً خلاقاً وعملاً غير خلاق!

الموسيقى، بطبيعتها، لها اتساع جماهيري يغلب على اتساع التشكيل، ولهـذا فهي تمس كل النـاس في مختلف مستـويـاتهم الثقـافية ومختلـف أعراقهم واجناسهم. وقـد سـاعدت وسـائل الاتصال الحـديثة على تعميم الموسيقى، وبالتالـي ساهمت في تشكيل اذواق مشتـركـة عـامـة جـديـدة؛ ممـا عمل على تضييق مسـاحات غمـوض الغـربـة، فنحن مدعـوون في كل لحظـة الى الاستماع الى أصنـاف واشكال من الاداءات الموسيقيـة المختلفة في طريقتها، وفي ادواتها، وفي انتماءاتهـا لبيئات ثقافية متعددة ومتباينة احياناً.

ان هذا هو الذي يفسّر لنا نشـوء «المزاج» الجديد لدى الجيل الجديد، فهم مثلاً غير ميالين الى الأغنية الطويلة، وهم منجذبون الى ايقاعات واداءات ليست على شيء ابداً ممـا عرفه الجيل الذي سبقهم او الجيل الذي قبله!

نحن مثـلاً نعتبـر تلك الموسيقى «صـرقعـات» لاطـائل من ورائها، لكنهم هم، من جهتهم، لايشاركوننا الراي نفسه او المزاج ذاتـه فيعتبـرون أن جيل الموسيقيين الجـدد هـو الجيل القمين بالاستماع، والاحتفاء، والتفاعل!.

ليس من العـدل ان نعمل علـى جعل مـزاجهم على مقـاس مزاجنا، وليس من العدل ان نخرج بـالتالي موسيقاهم من حوزة الفن. ليس هنـاك مزاج صح، ومزاج غلط. هناك فقط مـزاج لكل عصـر، ولكل بيئة ثقـافية تجـد نفسهـا مضطرة، في كل لحظـة، لاعادة صياغة نفسها بحكم ايقاع الزمن السريع نفسه.

شاب خالد قلب الدنيا كلها في الغرب وعند العرب، فهو يغني للمزاج الجـديد، وهـو يفيد مـن غموض غـربته إذ لايفهمـه أحد، ويفيد مـن غموض فني إذ تتمـركز كل موهبته في جملـة واحدة تدور على كل الشفاه هي «ديدي واه» هذه الجملة هي التي التقت مع «المشترك العام» في الحس وفي المزاج عند العرب وعند غير العرب.